ركن المعتزلة :

علم الله فى مذهب المعتزلة

للدكتور ألبير نصري نادر

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

إن الكلام فى علم الله يختلف كل الاختلاف عن الكلام فى المعرفة عند الإنسان ؛ لأن علمنا يتكون تدريجياً ونحن نصل إلى المعرفة بفضل مجهود فكرى مستمر نبذله فى فهم الحقائق والوقائع ؛ ونمر هكذا بمراحل أدناها مرحلة الجهل وأسماها مرحلة المعرفة ؛ ولكن كم تصادفنا من مراحل نشك فيها ونتردد وننعم التفكير ونجيل الأمور ونتخذ القرارات ثم نغيرها أحياناً ونتمسك بها أحياناً . وهذا التدرج فى تكوين المعرفة برهان قاطع على عجز العقل البشرى وعدم كماله .

وإذا ما تكلمنا عن علم الله فلا يجوز أن نقارنه بعلمنا ولا أن نحاول فهمه بتشبيهه بعلمنا لأنه لا توجد أدنى مشابهة بين التناهى واللاتناهى ولا بين الكامل والناقص .

لذلك كان الجبائى(1) لا يسمى الله فهما ولا فقيها ولا موقنا ولا مستبصراً ولا متبيناً لأن الفهم والفقه هو استدراك العلم بالشىء بعد أن لم يكن الإنسان به عالما(2) واليقين هو العلم بالشىء بعد الشك ، وكل هذا يدل على التبدل والتغير فى مراتب العلم ولكن لا يوجد أى تغير فى الله وهو فى حالة ثبات كامل لأن علم الله هو هو أعنى هو ذاته وذاته أزلية كاملة لا تغير فيها ولا تبدل .

ولما كان الله لم يزل عالما بكل الأمور فعلمه منذ الأزل كامل شامل كل شىء حصل وسيحصل . ولكن هناك مسألة بحثها المعتزلة على النظر وجاء البحث مؤيداً لقولهم بثبات علم الله منذ الأزل ، وهذه المسألة هى :

(1) هو أبو علي بن عبد الوهاب بن سلام الجبائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ولد فى جبى فى الجوزستان ثم جاء البصرة وتلمذ للشحام المعتزلى شيخ المعتزلة حينئذ فى البصرة . ومن تلاميذ الجبائى الأشعرى رأس الأشاعرة . انظر الفهرست لابن النديم ص ٦ وكتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للملطى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ

(2) الأشعرى : مقالات الاسلاميين ص ٥٢٦ .

هل يجوز كون ما علم الله أنه لا يكون ؟

ترد المعتزلة على هذا السؤال بالنفى طبعاً . ولكن ذلك لا يمنعهم من تحليل السؤال تحليلا دقيقاً ليبينوا استحالته . فنجد مثلا عند الأسوارى(1) يشطر السؤال شطرين هما أولا : يجوز كون شىء أعنى أن الله يقدر على الشىء أن يفعله ، وثانياً : الله عالم أن هذا الشىء لا يكون وإنه أخبر أنه لا يكون . ويقول الأسوارى إذا أفرد أحد القولين عن الآخر كان الكلام صحيحاً ؛ أما إذا اقترن القولان كان ذلك مستحيلا . وذلك على عكس ما هو عند الإنسان ؛ لأنه ليس من المستحيل أن نلاحظ عند الإنسان فرقاً بين معرفته لعمل واجب أداؤه والامتناع عن أداء هذا العمل ؛ لأن الإنسان قادر على الضدين فى حين أن الله لا يوجد فيه تغير ، وعلمه وإرادته وقدرته تعالى هى ذاته وذاته لا تتغير(2) .

وهناك رد آخر على هذا السؤال . فتقول المعتزلة : إذا علم الله أن حدثا أو عملا أو شيئاً لن يحدث لعجز أو استحالة فى الحدث أو العمل أو الشىء نفسه (مثل تربيع الدائرة أو إدخال المؤمنين إلى النار) أو لعجز من قبل الله على حدوث هذا العمل أو الشىء إذ أن حدوثه ينافى النظام والقوانين المسنونة للعالم منه تعالى ، فإن هذا الحدث أو العمل أو الشىء لم يحدث أبداً ما دام وجد العجز أو الاستحالة(3) .

فى هذا الرد نجد اعتقادين راسخين عند المعتزلة وهما أن العالم خاضع لنظام كامل تام مطابق لعلم الله ؛ وبما أن علم الله لم يزل ثابتاً فنظام العالم ثابت أيضاً لأنه لو تصادف وأصبح هذا النظام غير مطابق لعلمه تعالى فعلمه لم يعد كاملا . وبما أن علمه هو ذاته فتصبح الذات والحالة هذه غير كاملة أيضاً وهذا تناقض .

وتزيد أكثر المعتزلة على ذلك قائلين : ما علم الله أنه لا يكون لاستحالته أو لعجز عنه يجوز أن يكون على شرطين : أن يرتفع العجز عنه وإن تحدث القوة عليه . ولكن فى هذه الحالة كان الله لم يزل يعلم برفع العجز عن هذا الشىء وبحدوث القوة عليه .

(1) من أصل فارسى تلمذ لأبى الهذيل العلاف والنظام . توفى حوالى سنة ٢٠٠ هـ

(2) الشهرستانى : الملل على هامش ابن حزم ج ١ ص ٦٦ . الأشعرى : مقالات الاسلاميين ص ٥٥٩ و ٥٦٠ .

(3) الأشعرى : مقالات الاسلاميين ص ٥٦٢ .

وهنا لا يناقض كماله تعالى .

فنلاحظ أنه مهما اختلف وضع المسألة فالحل واحد وهو أن المعتزلة تردد دائماً أن الله لم يزل عالما بالأشياء كلها ولا يجوز حدوث شيء إلا وهو لم يزل يعلمه .

* * *

لما كان الله لم يزل يعلم كل شيء فكيف يمكن أن نتكلم عن حرية الاختيار عند الإنسان لأعماله ؟ أهو حر فعلا أم مجبر ؟ إنها لمسألة في غاية الدقة والأهمية وهاك رأى المعتزلة فيها .

علم الله ومصير الإنسان في الآخرة :

يحدثنا ابن حزم عن رأى لهشام الفوطي المعتزلي تشاركه فيه جميع المعتزلة لأنه يعبر عن أصل من أصولها في علم الله . يقول هشام : إن من هو الآن مؤمن عابد ولكن في علم الله إنه يموت كافراً فإنه الآن عند الله كافر . وإن من كان الآن كافراً مجوسياً أو نصرانياً أو دهرياً أو زنديقاً ولكن في علم الله أنه يموت مؤمناً فإنه الآن عند الله مؤمن[1] . فلا غرابة في هذا القول إذ أن علم الله لا يتغير ؛ فإذا علم الله منذ الأزل أن فلانا سيموت كافراً ولو آمن وقتاً من الزمن فإنه عند الله كافر ؛ لأنه تعالى لم يزل يعلم أن بعد إيمان هذا الشخص كفراً . ولا يجوز أن يزيد كفر المؤمن شيئاً في علم الله — هل يعني ذلك أن لا قدرة للإنسان على أعماله لأن الله لم يزل يعلمها ؟ نحن نعرف أن المعتزلة « أهل عدل » أيضاً أعني أنهم يقولون إن الإنسان قادر على أعماله محاسب عليها — فكيف يكون التوفيق بين القولين إن الله لم يزل يعلم كل شيء ، وإن الإنسان قادر على أعماله ؟

هناك حل دقيق أتى به الجبائي ليوفق بين هذين القولين . فيقول : لنفحص الحالات الثلاث الآتية :

أولاً : يقول الجبائي إذا وصل مقدور بمقدور كانت النتيجة إيجابية صحيحة ؛ مثلا لو قلنا إذا آمن الكافر (شرط أول) وكان الإيمان خيراً له (شرط ثان) لأدخله الله الجنة (النتيجة الصحيحة لهذين الشرطين) والمقدوران هما : العودة إلى الإيمان بعد الكفر — الإنسان في إمكانه أن يعود إلى الإيمان — وإذا لم تخبر الله عما يناقض ذلك فتكون هذه الحالة الأولى صحيحة .

عند تحليل هذه الحالة نجد المعتزلة تعترف بقدرة الإنسان على الكفر وعلى الإيمان وذلك بمجرد اختياره ؛ ثم إن الله لم يزل يعلم هذا الاختيار . إننا هنا بدون شك بصدد نقطة صعبة وهي شعورنا بمقدورنا على اختيار شيء أو حال دون الآخر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى علم الله منذ الأزل بما نختاره .

وإذا تمسكت المعتزلة بالقول بقدرة الإنسان على أعماله كان تمسكها هذا صوناً لعدالة الله وإلقاء المسئولية على الإنسان وحده عند ما يعاقب أو يثاب . ففي هذه الحالة الأولى التي يعرضها الجبائي برهان كاف على حرية الاختيار عند الإنسان على شرط أن يأتي اختياره على شيء ممكن جائز مقدور .

الحالة الثانية : إذا كان هناك شيئان متناقضان فلا يمكن التكلم عن حرية الاختيار عند الإنسان واستحالت النتيجة — مثل قولنا أن يكون المرء مؤمناً وكافراً أو متحركا وساكنا أو حياً أو ميتاً في آن واحد . إن الإنسان لا يقدر على ذلك وحريته مقيدة أمام التناقض . فالحرية لا تعني إذن القدرة على عمل أي شيء أو ضده — وبما أن الله لم يزل يعلم مجرى الأمور حسب قوانينها فهو يعلم عجز الإنسان أمام التناقض كما أنه تعالى لم يزل يعلم قوانين العالم فكل ما يحدث فيه كان هو لم يزل عالما به .

وفي الحالة الثالثة : يقول الجبائي إذا وصل شيئان أحدهما جائز والآخر مستحيل فتكون النتيجة مستحيلة ؛ مثلا إذا قلنا إن الكافر يؤمن في حين أن الله يعلم ويخبر أنه لن يؤمن فمن المستحيل أن يؤمن هذا الكافر فتكون إذن حرية المرء مقيدة بعلم الله وإخباره . ولكنها حالات شاذة تلك التي يخبرنا الله فيها عن علمه[1] .

أثر منطق أرسطو :

إن تحليل الجبائي لمسألة علم الله ومصير الإنسان هو تحليل منطقي لا شك أن لمنطق أرسطو أثراً كبيراً فيه . فمقابلته القضايا الإيجابية أولا والقضايا السالبة ثانيا واستنتاجه النتائج الإيجابية أو السالبة كل ذلك يدل على أن الجبائي كان ملماً[2] بهذا المنطق

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٤٩ .

(١) أنظر الأشعري : مقالات الاسلاميين ص ٥٦٠ .

(٢) تلمذ الجبائي للشحام الذي ألم بالفلسفة اليونانية عن طريق الترجمة التي قام بها حنين بن إسحق في بيت الحكمة (أنظر ابن المرتضى المنية والأمل ص ٥٠ والملطي كتاب التنبيه ص ٣٢) .